ديوان

خليل مردم بك

(١٨٩٥ - ١٩٥٩)

قدّم له

الدكتور جميل صليبا

عضو المجمع العلمي العربي

قصائد لم تنشر سابقاً

شرح وتحقيق

عدنان مردم بك

دار صادر

بيروت

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

مقدمة الديوان

الشعر والشاعر

بقلم

الدكتور جميل صليبا

إذا ذكر خليل مردم بك ذكر معه الصدق ، والوفاء ، ولطف الأخلاق ، والإباء ، والمروءة . فقد كان رحمه الله زكي النفس ، حسن العشرة ، صادقاً في قوله وعمله ، متودداً محبباً إلى كل من يكلمه ، وكان صاحب أخبار ونوادر ، وله معرفة بأحوال الناس . وهو كاسمه خليل وفي ، لم يقدّم نفسه على غيره في النفع ، ولا تعاطى أمراً إلاّ وجاء فيه مبرزاً . وكلٌ من أنس بصحبته اعترف بفضله ، ودماثة طبعه ، ومرونة تفكيره ، ولين عريكته ، وهو إلى ذلك قوي الإرادة ، ذكي الفؤاد ، مرهف الحس ، جيد الحكم ، واسع الخيال ، حسن الثقافة ، فصيح اللسان ، حلو الحديث ، يحب الضبط في الأفكار والدقة في المعاملات ، ويكره الشذوذ والإغراب ، فلا يحدثك إلاّ عما ترغب فيه نفسك ، ويستمتع به خاطرك ، يحدثك عنه في اتزان وهدوء وتأنٍ وصبر ودعة . وإذا حدثك عن الناس لم يذكر لك من أخبارهم إلاّ ما فيه مثل وعبرة ، لأنه على ولعه بالأخبار لا يميل إلى النقد والذم ، ولا يلذ له الحديث إلا إذا كان منزهاً عن الإيذاء والنميمة. وقلما سمعته يحدثك عن نفسه وأخباره ، أو عن شعره ونثره ، أو عن مشكلاته وأحزانه ، لأنه على رغبته في التنفيس عما في قلبه لا يحب أن يحزن قلبك ، ولا أن يؤذي سمعك ، ولا أن يتعاظم أو يتكبر عليك . لذلك أحبه الناس وقدروا فضله لعلمهم أنه مجبول على الخير لا يؤذي نملة ولا يجرح إحساساً ، ولذلك أيضاً خلا شعره من الهجاء إلا في مواطن القدح على المستعمرين والانحاء باللائمة على المتصاغرين أمامهم .

وكما خلا شعره من الهجاء فكذلك خلا من ذكر المجون والعبث واللهو ووصف اللذات الحسية . فهو لا يتفنن في وصف الرقص إلا ليقول إن الرقص لهو ولعب ، يهون به كل

صعب ، ويتيسّر فيه كل عسير ، ولا يصف مجالس الشراب إلاّ ليطلب من الله أن يغفر له زلاّت الصبى ، ويتقبل منه التوبة . وأنّى لشاعر لطيف النفس مثله أن يتغنى بالشهوات الجامحة وأن يلوث صوره الفنية الرفيعة بأدران الوحل والدم . إن إحساسه المرهف لا يريه في الطبيعة إلا الألوان الجميلة والألحان العذبة والحركات اللطيفة فيحدثك عن الرياض الزاهرة والخمائل الوارفة والجميم المتموج ، والطيور الصدّاحة ، والغدران المائرة ، ويعرض عن الصخور الصّماء ، والبراكين الثائرة ، والجبال الشاهقة ، والزلازل الهوجاء والصحارى الساكنة . وأحب الفصول إلى قلبه فصل الربيع لأنه ألطف فصول السنة لانسجام ألوانه ، ورقة صوره ، وعبق أزاهيره ، واعتدال حرارته . أما برد الشتاء وحرّ الصيف واحتضار الطبيعة في الخريف فليس لها في شعره أثر لأنها صور قاسية لا تستطيع نفسه اللطيفة أن تتمثلها ، فهو إذن يحب الطبيعة الجميلة لا الطبيعة المخيفة ، وإذا كان يصف البحر على شدته وقسوته وخوفه منه فمرد ذلك إلى ليونة البحر وكثرة ألوانه وحركاته على خلاف الصحارى الساكنة والرمال الظامئة فإنها على قربها من دمشق لم تأخذ بشغاف قلبه ولم تسترع انتباهه .

ومن عجيب أمره أن الريف البريطاني الجميل لم يستهو فؤاده ولا حرك شاعريته رغم اقامته فيه عدة سنين ، فليس فيديوانه قصيدةواحدة تصور لندن وضواحيها الجميلة أو تصور قصورها وحدائقها ومعالم حضارتها ، ولعل ذلك أن يكون ناشئاً عن جو لندن القاتم وطغيان ضبابها وكثرة ضجيجها ، ومن عجيب أمره أيضاً انه لم يصور رحلة من رحلاته الجوية ولا وصف أزيز محرك الطائرة في سكون الليل ولا الأحاسيس التي يشعر بها المسافر وهو ينظر إلى الأرض منخلال الغيوم ، وماذلك إلا لأنه كان يخاف ركوب الطائرة ويفضل الأمن على الخوف ، والدعة والطمأنينة على المخاطرة بالنفس .

نشأ في بيت كريم ووفّر لهمن الوجاهة ونعمى العيش ما مكنه من الاستغناء عن التكسب بعلمه وأدبه ، وأعانه على تثقيف نفسه ثقافة كاملة جمع فيها بين محاسن الأدب العربي والأدب الغربي فهو وجه دمشق الحق ، وشاعر الغوطة الملهم ، وعالم الشام الفاضل ، تتمثل فيه طبائع أهل الشام على أحسن وجه واتم صورة .

قرأ التفسير والحديث والفقه وأصول الفقه على كبار علماء دمشق ، ويلوح على شعره اثر

اللغة والتاريخ الى المام بالعلوم العقلية . وكان هواه السياسي مع القوميين حتى عرف بمناوءته للمستعمرين ، وظل يقول الشعر كل أيام حياته إلا في زمن تقلده الوزارة ، ولم يكن يعنى بالسياسة عنايته بالعلم والأدب ؛ قال :

أنا لست أعنى بالسياسة إنما هي نفثة من ذي جَوًى منهوك

وأبواب شعره على كثرته قليلة طغى عليها باب الوصف في الطبيعة والفن ، فليس له في الحكمة والرثاء والاجتماع إلا قصائد معدودة ، وليس له في المدح والفخر إلا أبيات قليلة أتت ضمن قصائده المختلفة ، على أن له قصائد كثيرة في الحماسة الوطنية والنسيب واخرى في الحنين إلى دمشق والتفجع على فراقها ذكر فيها مسارح صباه ومعاهد أنسه .

لم أجد بين شعرائنا المعاصرين شاعراً وصف غوطة دمشق كما وصفها خليل مردم بك ، فهو يصور رياض الغوطة وأزاهيرها وجداولها وخمائلها وأطيارها تصويراً دقيقاً مفعماً بحنان القلب وأحاسيس النفس ؛ وهو يحن إليها حنين العاشق إلى معشوقه ، يلقاها بوجه باسم ونفس متعطشة إلى شذى رياحينها فيشجيه عبق الزهر ، وساجع الطير ، وانسياب الغدير ، وتعانق الغصون ، فيقف أمام الطبيعة وقفة المسحور ، يعاطيها أحاسيسه وتعاطيه صورها ، ولا يصورها إلا بعد أن يغمس ريشته في مداد قلبه ، ولا ينثر في سمائهـا أحلام نفسه وهوى فؤاده إلا ليتّحد بها اتحاد الصوفي بمعبوده ، فكأن نفسه مرآة تعكس أسرار الطبيعة ، وكأن الطبيعة صورة من صور نفسه . والدليل على ذلك انه يشبّه صور الطبيعـــة بآثار النفس الإنسانية: فللزهر مقلة وسنى ، وخدّ ناضر ، وثغر باسم ، وجفن حائر ، وجبين يعرق ويرشح كما يرشح جبين البكر حياء ، وللغصون أذرع ممدودة للتعانق ، وللرياح تأوّه ، وللأطيـار حركات تحكي حركات القيان الراقصة ، وتغريد يشبه ألحان المغنين ، كأن الطبيعة التي يصفها كائن حي له قلب يدق ، وعرق ينبض ، وأنفاس تتدفق .

كان يحب التجول بين خمائل الغوطة بخطى حائرة فلا يقف إلا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض يمتع ناظره بما يراه من صور الجمال الساحر ، فلما وصف نهر بردى طاف بواديه من منبعه إلى مصبه عدة مرات فكان يسمع غمغمة النهر ، وهزجه ، وترنيمه ، ويرى انسرابه ، وزبده اللجب ، واستدارة مجاريه ، ورشاشه المبثوث هنا وهناك كالفراش أو كتوّل النحل

أو كالوابل السحّاح في مهب الريح ، أو كمعقد الدر في نحر الغانية ، فأحسّ وهو يصف هذا النهر بنفحات الروح تهب عليه ، وبالنهر يمد أنامله إليه ، وبالشمس ترسل اشعتها على الرياض لتلونها بأصباغها الجميلة ، فانتزع من ذلك كله صوراً حسية مزجها بأحلام قلبه ورؤى نفسه .

ان لجميع الحواس أثراً في هذا الوصف ، ولكن أعظمها تأثيراً فيه حاستا السمع والبصر لأنهما أدق الحواس ولأنهما تكشفان عما في الأشكال والحركات والألوان من توازن واتساق وانسجام .

١ — فما يدل على أثر حاسة البصر في شعر خليل مردم بك انه إذا وصف الزهر جاءك بصور بصرية متميزة فشبّه الزنبقة بخود شمرت عن ساقها لتستقي الماء ، أو بعذراء وضاءة الجبين تسربلت بغلالة من استبرق ، فكأن الزهرة في نظره فراشة بيضاء ، وكأن أطباقها أنامل أو جفون طويلة الأهداب ، وهو في ذلك يقول :

كم زهرة رفت فخلت فراشة　　بيضاء رق جناحهـا بترفق
أطباقها مثل الأنامل شبكت　　في كل كم تلتقي في مأزق
أو كالجفون طويلة أهدابهـا　　من ناعس ومغمّض ومحـدّق

وإذا وصف الشمس عند شروقها شبه احمرارها بشعلة نار علاها سحاب من الدخان ، فإذا بدت في السماء عارية أعشى سناها كل ناظر ، ومسح نورها دموع الليل عن وجنة الأزهار ، ولجّ في تقبيلها حتى تحمر خدودها كما تحمر خدود العاشقين ، فكأنها مرآة لاح على صفحتها نور وجه الله ، وكأن اشعتها المخترقة جسم الغيم ظبى دامية . إذا سفرت بسم كل شيء ، وإذا احتجبت عبس الجو اكتئاباً ، وبكاها من وجد بدموع المزن ، وإذا ما غربت في الأفق عند المساء رأيت نهرا من النور تموج فيه الألوان ، وتتراءى من خلاله صور الأشياء كما تتراءى ظلال الراح ، كأن الأفق ستار سينما ، أو اشباح أفلام ، أو كأنه بحر مائر ، أو بركان ثائر حتى إذا جاء الليل رأيته يزحف حبْواً كأنه مدّ بحر ساكن ، وكأن نجومه زهرات ذات أكمام .

٢ — ومما يدل على أثر حاسة السمع في شعره أنه إذا وصف الطير أسمعك سجعه وتغريده فتسمع الحمائم تهدر وتنوح كالثواكل ، وتحس بتفجعها وهتافها وبكائها كأن سجعها نوح

الحزين وكأن غزلهـــا وتهدارها وقرقرتها صوت زامر ينفخ في الرقص . فمن قوله في وصف الورقاء :

ورقاء ذات تفجع		هتفت ففاضت أدمعي
هاجت بتقطيع النياحة		لوعتي وتقطعي
فكأنهـا تبكي على		ألف هناك مضيع
في سجعها نوح الحزين		وأنة المتوجـــع
يشجي على علاتِهِ		في وصله والمقطـع

ومن قوله في وصف الغوطة :

تتجاوب الأطيار في أفنانها		من هاتف أو ساجع أو صافر
غنت بلحن يستثير لواعجـاً		ويهيج من طرب دفين ضمائر

ومن قوله في وصف بردى .

ما مرّ في بقعة إلا وخاطبها		طوراً بغمغمة طوراً بافصاح
في كل مرحلة لحن فمن هزج		إلى هدير إلى ترنيم نواح

ومثل ذلك كثير في شعره ، إلا أن أثر حاسة البصر فيه أقوى من أثر حاسة السمع ، ومع أنه كان يحب الطير ويطالع الكتب التي تصف حياتها ومواطنهـا وأخلاقها فإنّ وصفه لتغريدها أقل من وصفه لألوانها وحركاتها .

أعجب بانسجام الحركات إعجابه بانسجام الألوان والأصوات فوصف حركات الراقصين ورفرفة الطير وكرّه وفرّه ، وذبذبة ذيله ، وتدويم الفراش صعوداً وهبوطاً وانطلاقه وتزاحمه في الفضاء ، كأن الطير وهو يضرب بأجنحته النسائم راقص يرسم بحركاته الألحان فيوحد صور السمع والبصر ويمزجها بعضها ببعض ، فمن قوله في وصف حركات الفراشتين :

أفانين من الحركات زاغت		لها عيني وعي بهـا بياني
فمن ضم الى نشر لوثب		لرفرفة إلى حرب عوان
تحيرتا هنـا وهناك طيشاً		كما في الريح حارت ريشتان
إذا ماهبّتا لبلوغ قصـد		بـدا لهما فوجهتا لثان

وإن احداهما انطلقت فجدت　　بمتن الريح مطلقة العنان
ترى الأخرى تزاحمها اعتراضاً　　أفي رحب الفضا تتزاحمان

٣ — ومما يسترعي الانتباه أن لحاسة الشم في مواطن شعره أثراً لا يقل عن أثر حاسة السمع كقوله :

عبقت في الكأس من انفاسها　　نفحة تهدي إلى الندمان روحا

وقوله :

يا عجباً لطيب ريح الترب　　إذا تندى بدموع السحب
ونفحة في دمر والربوة　　فواحة لها دبيب النشوة
دقت عن الأوصاف والأسماء　　لكنها رائحة الفيحاء
طاب بها التراب والهواء　　وعبقت بطيبها الأرجاء

فهو يحب روائح دمشق ويشعر عند شمها بالنشوة تدب في قلبه ، وكم مرة ودَّ لو مرغ وجهه في تراب دمشق ليشم رائحته الزكية . لقد أعطته الغوطة كل شيء ، أعطته الصور الحسية التي أثرت في خياله ، وأعطته الأحاسيس والمشاعر التي صاغ فيها هذه الصور ، وليس المهم أن ينتزع الشاعر صوره من الطبيعة ، وانما المهم أن يعبر عنها تعبيراً دقيقاً يجمع بين متانة الأسلوب وسهولة اللفظ وعذوبة المعنى . وشعر خليل مردم بك في الوصف يشبه بعضه بعضاً في قوّة التعبير وجزالة المعنى ودقة التشبيه . قيل له مرة انك تكثر من وصف الصور الحسية ولاتصف شيئاً من الصور النفسية التي تختلج في صدرك ، فقال : إني لاأصف الصور الحسية إلا لأنها رموز تعبر عن رؤى قلبي وأحلام نفسي ، فهو اذن لايتفنن في وصف الصور الحسية إلا ليطل من خلالها على صور نفسه ، والدليل على ذلك أنه كان يضمن وصفه الحسي كثيراً من الشوق والحنين كقوله بعد أن وصف البحر :

قلت للسرب وقد أقبل من　　افق قلبي به عانٍ رهين
أيها القاطع عرض البحر هل　　لك عهد بروابي قاسيون

وكقوله في وصف الغوطة :

مرآة أحلامي ومرتع صبوتي　　وهوى فؤادي بل ومتعة خاطري
في كل مغنى من فؤادي شعبة　　وبكل واد هائم من خاطري

ولعل أحسن دليل على ماترمز إليه صوره الحسية من معان عقلية قصيدتان الأولى قصيدة: (قالت لي السمراء) والثانية قصيدة (يا ليتني) ففي القصيدة الأولى يصف الشاعر شروق الشمس فوق البحر من وراء السحاب في يوم مطير هبت فيه الرياح الهوج وطفت أمواجه وقصف رعده وومض برقه فيصور ألوان الأفق بعد الصحو وأشباح السحب وأشلاءها المتناثرة في السماء ويردد ما قالت له السمراء مابين السطور فيقول :

قد يكون اللحن والايماء أبدى للضمير

وفي القصيدة الثانية يتكلم على نفسه فيقول :

يا ليتني لما شربت الكأس صرفاً لم أثنّ
أوليتني لما انتشيت من المدامة لم أغن
أو أنني لما أرتويت تركت شيئاً للتمني
بل ليتني لما شممت الورد لم أقطف وأجن
أوليتني لم أنتقل في الروض من غصن لغصن

إلى أن يقول :

لكنني مازلت من سحر الجمال أصوغ لحني
لي في مواكبه فؤاد ضعت منه وضاع مني
كم بت رهن هواه في كف الجمال وبات رهني
ورويت عنه من الروائع مارواه الناس عني
ملك ومن عجب له في كل نفس سحر جني
ويشوقني أن أجتليه على التمنع والتجني

وهنا نلمس الميزة الأولى لشعر خليل مردم بك وهي اتخاذه الصور الحسية وسيلة رمزية للتعبير عن رؤاه وأحلامه. أثرت الطبيعة في خياله فأفاض عليها صوراً نفسية صبها في الألفاظ الجميلة وصاغها كما يصوغ الخزاف الطين ، فجاءت مفعمة بسحر الجمال . إنه يعبر عن الإحساس الجميل باللفظ الجميل ولا يتصدى لتصوير القبيح أو التافه أو الخسيس ،

تصباني الجمال وفي الفؤاد هواه منغرس

إنه يحب الجمال لأنه مرآة ينعكس عليها وجه الله لا بل هو ظل الله وقبس من نوره . إنه يلمحه من وراء الصور الحسية فيبصر ألوانه بعينيه ويسمع ألحانه بأذنيه ولكنه لا يستطيع أن يحده بما يرى ويسمع ، لأن هذه الأعراض الحسية زائلة وجوهر الجمال خالد . وغاية مايطمح إليه أن يصور هذه الأعراض لعله إذا أحسن تصويرها يستطيع أن يكشف عن جوهر الجمال الحقيقي ، والجمال لا يتجلى في أنفاس الزهر وألوان الربيع وتغريد الطير فحسب بل يتجلى أيضاً في وجه المرأة وقدها ورشاقتها وسحر عينيها ، فصورة المرأة في نظره أجمل صورة في الطبيعة ، سحر الجمال الحق من سحر عينيها ، ووحيه من وحي جفنيها ، لا بل إن رحيقها ألذ من الخمر ، وأنفاسها أطيب من أنفاس الربيع ، فلا غرو إذا ملأ حبها قلبه فتغنى بجمالها ووصف حبه وشوقه إليها ، وعذره في هواه أنها جميلة وأنه لا ذنب له في غرامه بها .

إن كان ذنبي أنني بك مغرم　　　فعلام حسنك فتنة للرائي

إننا لا نعرف من هي (لمياء) التي يتغزل بها في شعره ، ولكننا نلمح من وراء وصفه وغزله مشخصات ترينا أن (لمياء) فتاة مسيحية جار عليها أهلها ومنعوها من لقائه فنزحت عن دمشق ، وأنه على شدة غرامه بها كان يعف عنها ، فلا يجتمع بها خلسة إلا ليبثها شوقه وهيامه ، ولا يضع يده بيدها إلا ليشكو إليها صبابته ولوعته ، فمن هذه المشخصات قوله :

فأي كتاب بعد هذا وسنة　　　تباعدني أن لا أدين بدينها
لئن فرقت كتب الديانات بيننا　　　لتجمعنا صحف الهوى بغضونها
وإن حرّج الإنجيل وهو محرف　　　ففي صحة القرآن حل وضينها

وقوله :

فكأننا إذ ذاك زوج من قطا　　　يتطاعمان بروضة غناء
قد كان في طوقي بلوغ مآربي　　　لولا زواجر عفة وحياء

وأكثر شعره في النسيب يرجع إلى زمان الصبى ، وهو الزمن الذي تفتحت فيه قريحته عن سحر الجمال ، فلما خبت نار حبه اتجه إلى الطبيعة وطرق أبواباً مختلفة من الشعر ، إلا أنه عاد إلى وصف المرأة في قصيدة عنوانها (واها لأيام الشباب) وهي آخر مانظمه .

وهو يرى أن الشاعر يتلقى الوحي من سماء الخيال فيعي سر الوجود والعدم ويمثل

الصور العلوية بالألفاظ ، فإذا شاهد احمرار الشفق قال هذا نجيع الشهداء ، وإذا سمع هزيم الرعد قال هذا صراخ البائسين . فمن لم يكن صوغ القوافي سجية له فلا يتعب نفسه بخوض بحور الشعر ، لأن ميزان الشعر هو الطبع ، وسحره هو الإلهام .

فلم يبق بعد الوحي من نبأ السما إلى الأرض غيرالشعر معجزة كبرى

ومتى أدرك الشاعرهذه المنزلة من السحر غمرت نفسه الطبيعة والمجتمع ، فتغنى بالشعور القومي والشعور الإنساني معاً وعمل على اصلاح حياة الإنسان . لذلك اهتم خليل مردم بك بالنواحي القومية والإنسانية اهتمامه بوصف الطبيعة ، قال في قصيدة الشعر :

إذا لم ينبه شاعر القوم قومه فذاك بأن يشقى به قومه أحرى
أرى الشعر أنفاساً يصرفها الفتى فيُطفي بها جمراً ويُذكي بها جمرا
وينفحها روحاً بميّت أمة فتنسلّ من أحداث غفلتها تترى

فلا يكون الشاعر شاعراً إذن إلا إذا نبه قومه وأيقظهم من سباتهم ، فذكرهم بأمجادهم القديمة وأذكى حماستهم وأطلعهم على نقائصهم . وأي فضل لشاعر عربي معاصر لا يرثي شهداء العروبة ولا يتغنى بالاستقلال ولا يدعو إلى الثورة على الاستعمار ، ولا يقدس الوحدة العربية الكبرى . لقد جمع خليل مردم بك في شعره الحماسيّ بين هذه الأغراض كلها فبكى على الشهداء :

يا دين قلبي من يوم ورى كبدي وطال همي لذكراه وتسهادي
في ميسلون من الأشجان سلسلة نيطت بأطرافها أرجاء أرواد
هل من سبيل الى الإنصاف في زمن جلت رزاياه عن حصر وتعداد
في مسمع الدهر وقر من شكايتنا فهل يصيخ إلى سمعي وإنشادي

ودعا إلى الثورة والنضال :

بني العروبة كم من صيحة ذهبت لو يستثار بها الموتى إذن ثاروا
يا ليت شعري ماذا يستفزكم كم أرسلت شرراً بالقدح أحجار

ووصف الثورة السورية فقال :

مصيبة ميسلون وإن أمضت أخف وقيعة مما تلاها

فما من بقعـــة بدمشق إلا تمثل ميسلون وما دهاها
فسل عمـا تصبب من دماء تخبرك الحقيقة غوطتاهـــا
ولم أر جنـة أمسى بنوها وقود النار فائرة سواهـــا
سأقصر فالقوافي اليوم جمرٌ أخاف على المسامع من لظاهـــا

ودعا إلى الوحدة العربية :

فكيف ترجى جمع قيس ويعرب وشملك يا هذا شتيت مفرق
وكيف ترجى وحدة عربية ومن دون راشيّا حدود وبيرق

فهو ينتقد الذين شغلتهم السياسة المحلية عن المطالبة بالوحدة العربية الكبرى ، ويرى أن انقسام الشام إلى دول صغيرة مخالف لطبائع الأشياء ، وأنه ينبغي للقائلين بالوحدة العربية أن يعملوا أولاً على توحيد أقاليمهم الصغيرة فان الوحدة لا تتجزأ ، وإذا تجزأت قصرت عن بلوغ غايتها ، وانه لمّا يحزن القلب أن ترى كل حاضرة من الحواضر العربية داراً لمملكة مستقلة ، فما علينا لو اتحدنا جميعاً في دولة عربية واحدة تضم أجزاء الوطن العربي كله . وهو في ذلك يقول :

ماذا عسى أنكرت من جلق حلب بل ما عسى أهل لبنـان يريبهم
بلادنـا ويد التقسيم تعلقها كأنهـا رقعة ينتابهـا جلم
أكل حاضرة دار لمملكـة أبعـاد ما بينهن الفتر والبصـم

ويرد على الذين يزعمون أن اختلاف الأديان يمنع من تحقيق الوحدة العربية فيقول :

قالوا وفي الدين بون دون وحدتنا إلى متى باسم هذا الدين نقتسم
لئن أصروا على أهواء أنفسهم لا الدين يبقى ولا الدنيا ولا الشيم

فشعره الوطني يريك أنه كان يعبر عن منـازع أمته أحسن تعبير ، تؤثّر فيه الأحداث التاريخية فتارة يصف الفتح العربي وتارة يخاطب اللجنة الوطنية العليا وتارة يدعو إلى النضال والوحدة ، وأكثر شعره الوطني يرجع إلى أيام النضال ضد المستعمرين .

ويعجبني من شعره الاجتماعي قوله في الطفل :

ولد المرء إذا أنصفته وتدبرت مربي الوالدين
ولدي شطر فؤادي إنمـا بك أنشا الله خلقي مرتين

وقوله في ولد الولد :

أحب أولادك من أنت له أب وجـد
أسبابه أكثر في القربى م وأعلى وأشـد
ليس أحب من ولد للأب إلا ابن الولد

فالطفل في نظره أمل باسم ، لا بل هو صورة من صور الله خطت يد الله على وجهه آيتين من الطهر والبهاء ، وهو زينة العيش ، والساعد المسعد والعون المرتجى ، ومن حق آبائك في إحسانهم إليك أن تربي طفلك تربية صالحة .

على أن عناية خليل مردم بك بأسرته لم تكن أشد من عنايته بإصلاح الفساد الاجتماعي . مارس التعليم عدة سنين فنشأ تلاميذه على تذوق الجمال والحق والخير ، ودعا إلى تهذيب الفتاة ، وذم من يتمسك بالقشور من رجال الدين ، وانتقد العادات الفاسدة ونادى بضرورة الأخذ بما جاء في الحضارة الغربيّة من قيم صالحة .

ووشعره الاجتماعي متصل بشعره الإنساني ، أثرت فيه حوادث الحرب العالمية الأولى فوصف الجوع والفقر والمرض ،وشكا الدهر ، وصوّر المحزون والبائس واليتيم والأعمى ، وتكلم على الحرية والحق والإنصاف والسلام . ومن أحسن ما قاله في الحرية مخاطباً (شهيد إيرلندا)

كأنك من ذوي قرباي لما رثيتك باكياً نظماً ونثرا
ولم تك ذا ولاء في معدّ ولم تبلغ بك الأجداد فهرا
ولكني بكل فتى كريم أخي ثقة عزيز النفس مغرى
فنبئني أعيش المرء خير بذل أم رداه فانت أدرى
إذا كانت حياة المرء أسراً فإن الموت بالأحرار أحرى

ومن قوله في وصف المحزون :

ورأى الظالم لا يرقب في المظلوم ذمه
فبكى حزناً لمن عُرِّيَ عن عدل ورحمه
وعلى من بشديد الجور والظلم مُني

. . .

قال ياذا المال مافي المال لي من مطمع

أي شيء هو أغلى من لآلى الأدمع
هل رأت عينـــان دراً غيرها في الأعين

فالدموع عنده أغلى من المال لأنها تكشف عن ظلال الحن وثروتها لا تنفد والظالم الذي لا يرعى ذماماً أشقى من المظلوم .

ومن شعره الإنساني قول في قصيدة عنوانها إغاثة البائس :

صنع الجميل وفعل الخير إن أثرا — أبقى وأحمد أعمال الفتى أثرا
لو أعوز المال أصحابي سقيتهم — دمي ولست على العلات معتذرا
ماراض جامح نفسي للقريض سوى — معنى الحنان ومعنى البؤس اذ خطرا

ومثل ذلك كثير في شعره ، إنه يعارض الحكم بالاعدام لانه قتل

وقاتل النفس لو صحت عدالته — كمن يداوي بفقء المقلة الرمدا

وليس يملك فك الروح عن الجسد إلاالذي خلقها . وإذا كان الانسان يظلم أخاه الانسان فمرد ذلك إلى الشر المندرج في طبيعة الوجود ، ومن خبر دهره ازداد شؤماً على شؤم ، إلا أن الشاعر لا يستسلم لليأس ، بل ينقذ نفسه من التشاؤم بالالتجاء إلى رحمة الله ، لأن الله خير ، واليأس من رحمته كفر . إننا لا نعرف الله إلا بآثاره فهوالمصور المنشيء ، وهو المبدع والمبقي،ولكننا لا نعرف حقيقته ، ولا حقيقة الروح والحياة ، ولا معنى الوجود والعدم ، ولا معنى الجبر والاختيار ، وغاية مايطمح إليه الشاعر أن يعبر عما يعلمه بالذوق لا بالنظر العقلي:

الذوق والوجدان والمعقول — والحب آيات سمت وفصول
امّا الجمال فانه تمثيـــل — يدنو به التفسير والتفصيل
عرض صفا فأضاء منه الجوهر

هل فاز بالايمان من لم يجحد — فالعين لا تغفو إذا لم تسهد
لم يدر معنى الخفض من لم يجهد — والماء لا يلتذه غير الصدي
والفجر من خلل الدياجي يسفر

وهكذا يصوّر لنا الشاعر تجربته الفلسفية وشكه في حقيقة الروح وفوزه بالإيمان بعد الشك واعتماده على الذوق والوجدان في إدراك حقيقة الجوهر . وإذا اعتمد الشاعر على

الذوق أدرك أن العالم كله ديوان شعر ، وأن صوره الحسية رموز وأعراض يتلألأ فيها الجمال ، وأن الكائنات جميعها تصلي لله وتسبح ، وأن الشعر إلهام وغناء وسحر .

لقد ظل خليل مردم بك يتغنى بسحر الجمال كل أيام حياته ، فلم ينقطع عن الغناء إلاّ في فترات معدودة ، وهي فترة إقامته في لندن وفترة حزنه الشديد على وفاة ولده ، وفترة تقلده الوزارة ، ولكنه كان خلال هذه الفترات يملأ قلبه من الإحساسات والتجارب حتى إذا تخمرت نظمها في سلك من اللآلئ الجميلة .

وبواكير قصائده تريك أنه كان ينحو منحى المتنبي ويترسم خطاه ، وهو شديد الإعجاب بالبحتري يشبهه في بعض قصائده من حيث دقة الوصف ، وكأن حبه للجزالة والسمو أغراه بتخير القوافي الجميلة والتراكيب الفخمة . ونفَسُه في قصائده كامل الاعتدال لا هو بالقصير ولا هو بالطويل ، على أنّ تأثره بالأدب الغربي جعله يحافظ على وحدة القصيدة وترتيب معانيها ، وقلما قال الشعر ارتجالاً أو عفواً ، بل الشعر الذي تقرأه في ديوانه يدل على جهد طويل ، وتخمر بطيء وتأمل مبدع ، لا يخرج قصيدته إلا بعد أن يصقلها ويرتب مقاطعها ويتخير لها أحسن الألفاظ فتجيء غاية في المتانة والرقة .

والجميل في شعره أنه يدل على أخلاقه وشخصيته ، وينم على طبعه ولطف نفسه فهو لا يتكلف النظم ولا يقول الشعر إلا للتعبير عن أحاسيسه ومشاعره ، وإذا كلف النظم في بعض المناسبات ولم يكن عنده ما يقوله امتنع عن القول .

وكان على نبل أسرته ويساره وعلمه وأدبه وشاعريته زاهداً في الاعتداد بالنفس يغلب عليه الجد والتصاون ، فلم يكن مختالاً ولا فخوراً ، ولا سباباً ولا طعاناً . ولعل غلبة الجد عليه جعلته شديد الكتمان ، شديد الانطواء على نفسه كأن هناك صراعاً عنيفاً بين باطن حياته وظاهرها ، بين الانفعالات الشديدة التي تحتدم في نفسه ، والدعة والأناة واللطف والتواضع التي يظهرها لمحدثه ، فأدى هذا الصراع العنيف إلى ظهور علامات الشيخوخة عليه ، وهو لا يزال غض الشباب ، فمن قوله في الشيب الذي ملأ رأسه .

حناني الوجد حتى خلتني م حــزت الثمانينــا
وشاع الشيب في رأسي ولم أبلــغ ثلاثينــا

وقوله :

كأنما الشعرات البيض اذ سطعت	شهب لقد رجمت دوني الشياطينا
ان الشبيبة نار إن خبت تركت	من المشيب رماداً ثابتاً فينـــا

وانضاف إلى ذلك كله محن كثيرة أدت إلى اعتلال صحته وهو لا يزال في ميعة الصبى ، فظل كل أيام حياته نحيلاً ضعيف القوى حتى أدركته الوفاة . وكان خلال مرضه الأخير كما كان دائماً صابراً مؤنساً ، متزناً هادئاً ، هاشاً باشاً كريماً ، لطيف النفس ، مؤمناً بالله ، متفائلاً بالخير .

الدكتور جميل صليبا

حياة الشاعر

بقلم

الدكتور سامي الدهان

خليل مردم بك

١٨٩٥ — ١٩٥٩

في الحادي والعشرين من شهر تموز ١٩٥٩ قضى[1] رئيس مجمعنا العلامة الشاعر الأستاذ خليل مردم بك اثر مرض لازمه شهوراً ، فسرى نعيه في الاقطار العربية ، وجزع الصحب ، وهلعت قلوب الأحبة ، ومشى الحزن في الصدور ، فقد طوى الموت بفقده مزايا نادرة وصفات باهرة في الخلق والادب والانتاج ، وانحسر علم في الشام ظل مرفوعاً خفاقاً منذ أهل القرن .

كان « الخليل » نموذجاً رائعاً من رجال البيان لصدر هذا العصر في أدبه وانتاجه ، يلز بالفحول من الشعراء في مصر والعراق ولبنان ، ويلحق بكبار الأدباء من الصفوة المختارة ، رفع اسم بلاده عالياً ، وقضى حقها كاملاً ، وناضل في سبيلها كل حياته ، فأصبح منارة يستضيء بها الجيل الصاعد ، وغدا أمثولة تحتذى وسيرة تقرأ ، فقد كان من الأوائل الذين استساغوا الأدب الضخم والعبارة الفخمة والشعر المتين ، عكف على تراثنا الخالد ، وأفاد منه ، وحببه الى الناس فخدم الأدب العربي خدمة لاتنسى ، وكان صلة الوصل بين القديم والحديث ، جمع أطايب القول وأحاسن الصور ، وعرضها في أجمل ثوب وأحسن حلي ، وقاسى في سبيل ذلك ما لايقاسيه جيلنا من فقد المصادر ، وندرة الخزائن ، وقلة الثقافة ، وضآلة التعليم ، وجفاف الينابيع .

كان القرن التاسع عشر يتنفس آخر سنيه ، شقياً بما شهد من ظلم وعسف وضيق ، وكانت الأنوار تظهر حيناً وتختفي أحياناً ، وفي سنيه الأخيرة ، قبل أن يموت هذا القرن ،

---

(١) وذلك في صبيحة الثلاثاء الواقع في ١٥ محرم ١٣٧٩ ، ودفن في دمشق بباب الصغير ، وحمل نعشه الى المجمع العلمي تحية أخيرة ووداعاً كريماً وسار وراءه علية القوم ورجال الحكم في قلوب واجفة وعيون دامعة ، وابنه في المجمع الشاعر الأستاذ أنور العطار بقصيدة من جيد الشعر

ولد خليل مردم بك حوالي سنة ١٨٩٥ (١) بدمشق ، لأب هو أحمد مختار مردم بك ، وأم هي السيدة فاطمة الحمزاوي ابنة السيد محمود الحمزاوي مفتي دمشق وعلامتها ، وصاحب التصانيف المعروفة من شعر ونثر . ولم يكن له أخوة من الذكور ، وانما كانت له خمس شقيقات ، فدفع به أبوه الى التعلّم ، وسلكه في مدارس ذلك الزمان ، وهي ضعيفة الثقافة ، فنشأ الصبيّ كما نشأ أقرانه ، ودرج في مدرسة الملك الظاهر الابتدائية . ولكنه ما كاد يتم الخامسة عشرة من عمره حتى فقد أباه ، ثم فقد أمه بعد أربع سنوات ، فغدا في صدر حياته يتيم الأب والأم ، يسير بين أشواك الدنيا حذراً قلقاً متردداً ، حيياً خجولاً ، وكأن المصيبة طبعته بطابع الصمت والحذر والسكون ولازمه ذلك طوال حياته

ومضى الشاب إلى إكمال تحصيله رغم يتمه ، يتابع الدروس على أساليب تلك الأيام ، فأقبل على الحديث والفقه والنحو والصرف ، فدرس الحديث على المحدث الشيخ بدر الدين الحسني ، والفقه على مفتي الشام الشيخ عطاء الله الكسم ، والصرف والنحو على الشيخ عبد القادر الاسكندراني ، وهم علماء دمشق والمقدمون في مجالي الثقافة والمعرفة ، فأفاد منهم ، وأخذ عنهم ، حتى علقت به أساليب القدماء وطرقهم ، فوقف على العربية وهو مازال يزحف نحو الثالثة العشرين من سنيه ، وراح يقرض الشعر ، ويتلهى بقوافيه ، يقلّد القدماء ويجري على سننهم حتى أصبحت له ملكة في الشعر ، فدار اسمه ولمع صيته في بلده .

وانقضت سنة ١٩١٨ بويلاتها وشرورها ، وجلا الأتراك عن دمشق ، فعيّن الشاب مميزاً لديوان الرسائل العامة ، ينقح ما بين يديه من أوراق ، ويصلح ما يعرض عليه من كتب في التعابير والجمل ، ويضع ما يرى من كلمات ويختار أشرف الألفاظ ، ويمارس الوظيفة مترقياً في مراتبها حتى أواخر سنة ١٩١٩ . وقد شهد خلال هذه الحقبة كثيراً من الرجالات الرسميين عن كثب ، واستمع الى أحاديثهم ، ورأى بعينيه تاريخاً جديداً للأمة العربية يسطر ويكتب ، فاهتز قلبه للأمجاد ، وتفتحت نفسه للمناصب ، وظل عمره كله يذكر تلك الحقبة السعيدة من سنيه ، ويتغنى بأنه رأى أمته تنشىء الحياة وتبني العز من جديد بعد ركود طويل . فآمن بعروبته ، وتعشق بطولاتها ، وسحر بتاريخها ، وأحب أن تعود كما كانت

(١) ذكر بروكلمن ٣ / ٣٠٦ في ترجمته للفقيد ، أنه ولد سنة ١٨٩٠ ، ولعله نقلها عن كامبفماير الذي استكتب أدباء دمشق وسيرهم ، بأقلامهم .

اتسابق النجوم وتصافح المفاخر ، فمال قلبه إلى الشعر الوطني ،وتغنى لسانه باستقلال العرب .

ولما دخل الفرنسيون دمشق ترك الوظيفة ، وانصرف إلى خدمة القوم ، وتغلغل في قلبه كرههم ، وعرف بذلك كل حياته ، وعشق الشعر المهجري ، وأطال صحبته لإنتاج الرابطة في نيويورك ، فكان من ذلك أن أسس مع صحبه « الرابطة الأدبية » ، دخلها معه أدباء ذلك العهد ، وفيهم : محمد الشريقي ، ابيفانوس ،شفيق جبري ، حيدر مردم بك ، سليم الجندي، حليم دموس ، أحمد شاكر الكرمي ، قبلان الرياشي ، عبد الله النجار ، جورج ريس ، نسيب شهاب ، ماري عجمي ، عز الدين علم الدين ، نجيب الريس ، فخري البارودي وغيرهم.

وعقد أعضاء الرابطة أول اجتماع لها في شهر آذار سنة ١٩٢١ ، ووضعوا قانوناً لجمعيتهم، وانتخبوا خليل مردم بك رئيساً للجنة الإدارية وعمره ست وعشرون سنة .

وكانت الجمعية تعقد كل أسبوع اجتماعاً ، يلقي فيه أحد الأعضاء محاضرة في موضوع معيَّن . ثم أنشأت الرابطة مجلة باسمها « مجلة الرابطة الأدبية » فكانت من خيرة الصحف لذلك الزمان في موضوعاتها وفي أسلوبها ، تختار أطايب القول في الشعر والنثر ، وتترجم عن فحول الغربيين ، وتعنى باللغة ومفرداتها . وقد صدر العدد الأول منها سنة ١٩٢١ ، وفي صدرها شعارها : « انشاء جامعة أدبية تلم شملهم وتوحد قوتهم » .

وفي هذه المجلة نشر الفقيد شعراً ودراسات،وكان الشعر في الغزل ، وهذه مطالع بعضه:

الهوى يا ميّ صعب　　فارحمي من لك يصبو (١)
أما ينفك قلبك مستطاراً　　إذ ما البرق أومض واستطارا
هل تذكرين بسفح دمر ساعةً　　فيها افترشتِ يدي وفضل ردائي

وهذه القصائد مشبوبة العاطفة ، مضطرمة اللوعة ، تمثل الشاب في هذا السن ، وقد تفتح قلبه للهوى وخفقت ضلوعه للحنين ، وسالت في دروب حفظه أشعار البحتري وابن المعتز وقصائد العذريّين ، فكان صورة عنهم في الرقة والأسلوب وفي كثير من معانيه ، فقد سلك الشباب في حب الشعر القديم والتراث الخالد منذ هذه السن مسلكاً عجيباً ، وعكف

(١) الديوان ص ٢٣١ .

على المخطوطات ، وأخرج مع زملائه من أعضاء الرابطة كتاب «معاني الشعر» للأشناندانى[1] وطبعه بدمشق سنة ١٩٢٢ . وطفق بعد ذلك يكتب مقالات ودراسات في مجلة المجمع العلمي عن المخطوطات ونقد الكتب المحققة ، فكان لأساتيذه القدماء فيما نظن أثر في توجيهه هذه الوجهة ، بل كان للمحققين في زمانه يد في هذا الحب ، وفيهم الشيخ طاهر الجزائري والأستاذ محمد كرد علي .

وظلّ الرجل يعمل للرابطة وحلقاتها ومجلتها حتى شعر المستعمرون أنه محور يقظة ، وموضع بعث فأغلقوا المجلة ، وحلّوا الجمعية ، وانتثر العقد ووقفت الرابطة بعد أن قامت بنشاط منتج ، وأصدرت من المجلة تسعة أعداد سدت بها فراغاً كبيراً .

* * *

ولا شك في أن هذا النشاط وهذا الانتاج دفعا بالمجمع العلمي العربي إلى تقدير شاعرنا وانتخابه عضواً في المجمع[2] ، فتقدم إليه برسالة عن « شعراء الشام في القرن الثالث » تمت على حذق وفهم وحبّ عميق للشعر الأصيل ، وعكوف على هذه الطبقة المختارة من شعراء العرب ، ظل فقيدنا يغذيها بقراءاته وبحوثه ، وجهوده في جمع الدواوين طوال عمره حتى كاد يستكمل حلقة الشعر في الشام منذ القرن الثالث حتى السابع . وقد نشر دراسته هذه في مجلة المجمع[3] أولاً ، ثم طبعها على حدة في كتاب صدر سنة ١٩٢٥ .

وهكذا احتل الرجل مقعداً من مقاعد الخالدين . وكانوا خلاصة الأعلام وسادة الثقافة والبيان ، ينظر إليهم العرب في أقطارهم على أنهم معقد الأمل وحصن العربية ومصنعها الضخم ، عنهم تصدر المقالات الرصينة ، وفي دارهم تعقد الندوات الأدبية الرفيعة ، وبيدهم تحرر أوثق مجلة علمية ولدت مع فجر الاستقلال العربي . وما زالت كذلك إلى اليوم تطيف على عالمنا كؤوس المعرفة صافية ، ودراسات الأدب نقية ، خالية من شوائب العصر ، بعيدة عن السياسة كل البعد ، حتى غدت منارة وحدها بين الصحف تولد وتموت ، وتظهر وتطوى ،

---

(١) طبع بنفقة الرابطة سنة ١٩٢٢ في ٢٠٨ صفحات .

(٢) انتخب في ٩ كانون الثاني سنة ١٩٢٥ .

(٣) انظر مجلة المجمع سنة ١٩٢٥ (ص ٢٩٤ وما تليها) وكتاب شعراء الشام ، طبع دمشق سنة ١٩٢٥ ، في ٩٦ صفحة .

ولكنها كالمجمع نفسه جبلت على الخلود ، والخلود لا يمسّه عيب ولا يلحق به نقصان . وكان هذا المجمع مثالاً ناجحاً احتذاه علماء القاهرة وبغداد ، فأنشؤوا في كل من الحاضرتين مجمعاً ومجلة ليسيروا بها على غرار دمشق

وفي هذه المجلة نشر الفقيد مقالات يجب أن تجمع ليوم ذكراه ، كما فعل في جمع مقالات صحبه ، فقد كان الرجل مثال التواضع والتفاني فصرف همته إلى دواوين غيره ومقالات زملائه ، ولا يصح أن ينصرف زملاؤه عن العمل لمقالاته ودراساته .

وفي هذه السنة نفسها (١٩٢٥) نشر الفقيد « كتاب وقف الوزير لالا مصطفى باشا ، وكتاب وقف فاطمة خاتون بنت محمد ابن السلطان الملك الأشرف قانصوه الغوري » وكتب على الغلاف : « وقف على طبعها خليل بن أحمد مردم بك » (١) .

ولم تكن أعمال النشر والتحقيق والمقالة وحدها هي التي تستبد بوقته ، فقد كان يؤمن بأن للنضال عليه حقاً ، لذلك عاش حياته كلها يعمل للأدب ويتغنى بالثورة ، فهو في برزخين أبداً يتنقل من هذا إلى ذاك ، كما يتنقل الطير من فنن إلى فنن ، فكان ينظم الشعر في الجمال كما ينظمه في خير وطنه وفي إثارة الشعب ورد الطغيان ورفع الظلم ، فكانت منه قصائد عامرة نظمها في الوطنية والعروبة وطرد الفرنسيين ، ردّدتها دمشق وتغنت بها ، فلما نشبت الثورة السورية سنة ١٩٢٥ ، وقام النهب والحريق والقتل في جنبات الغوطة الغناء وفي رحاب دمشق الفيحاء أرسل قصيدته المشهورة « يوم الفزع الأكبر » ومطلعها (٢) :

أمدَّه الدمع حتى غاض جائده　　فمن بأدمع عينيه يرافدُهُ

فتناقلها الناس ، ونشرتها الصحف العربية ، وتلفت الفرنسيون إلى هذا النور ليطفئوه ، وأرسلوا في أثره يطاردونه ، ففر إلى لبنان ، واستخفى فيه بقرية « المروج » بمساعدة الشاعر أديب مظهر . وما علمت السلطة بوجوده هناك حتى راحت تلاحقه للقبض عليه ، فهرب إلى الاسكندرية سنة ١٩٢٦ ، ونزل عند شقيقته السيدة فائزة زوجة المرحوم الدكتور أحمد قدري (وهو من أعلام الثورة العربية ومن رجال فيصل الأول المقربين) .

---

(١) طبع بدمشق على نسخ قليلة ، سنة ١٩٢٥ في ٣٠٠ صفحة .
(٢) انظر ديوان الثورة ، جمع محمد ياسين عرفة ، مصر ١٩٢٦ ، ص ١٢٤ .

ولبث الفقيد في مصر أربعة أشهر كان لها أثر كبير في حياته ، فقد كان يقرأ عن بعد الأدباء المصريين ، ويستمع إلى أخبارهم ، ويتلقف آثارهم ، ويشتاق إلى معادن العربية من مكامنها ، فلما بلغ إليهم اتصل بالأعلام ، وعرفهم كما عرف من قبل رجال السياسة العربية في بلده . وقد عرفنا من أحاديثه الشخصية ما كان يلقى من إكرام ومايصيب من ود ، ورجوناه أن يسجلها لجيلنا ، فكان منه مقالتان في ذكرياته مع حافظ ابراهيم بالاسكندرية وحلوان ، نشرهما في مجلة المجمع العلمي العربي (١) ، وتحدث فيها عن شاعر الشعب في أدق عيشه وحركاته .

وتأثر الخليل من غير شك بجو الاسكندرية وثقافتها ، فعزم على الدراسة في الغرب ، وقرر أن يقصد الى انكلترة ، فسافر اليها وانتسب الى جامعة لندن ، واقي فيها آفاقاً رحبة واستمع الى كتاب الانكليز ، وظل طوال عمره يذكر أثر ذلك ، وما كان من استماعه إلى ويلز وغيره من الكتاب الغربيين . ولبث في تلك البلاد أربع سنوات درس فيها الآداب وحصل على شهادة تعادل الدكتوراه . وقد كان لوقوعه على الأدب الأنكليزي ورحلته في الغرب أثر هام في شعره . وظهر الأثر في قصائده : سكران وسكرى ، والنوطة ، وبردى والرقص ، فجمع جزالة العبارة الى براعة الصورة ، وأفاد من الشعر الفحل في مصر ، واللون الغربي ، ووفق في الموسيقى والخيال ، وارتفع بالشعر الشامي المعاصر إلى مراتب الجودة والتوفيق .

وعاد إلى دمشق سنة ١٩٢٩ مشوقاً ظمآن إلى مواطن صباه ، والجراح تحت ردائه لما أصابها من نكبات وهزات ، فاستقبلها بقصيدة لعلها من خير شعره ؛ حيا فيها عاصمة بني أمية ، وجعل عنوانها « سلام على دمشق » قال في مطلعها :

تلاقوا بعد ما افترقوا طويلا   فما ملكوا المدامع أن تسيلا

فاهتزت مشاعر قومه ، وصفق له الأدباء ، ورأوا فيه شاعراً ألان القوافي لبراعته ، فأكبروه وأحلوه مكانة الود والإكرام . وعيّن مساعداً لرئيس الأدب العربي في الكلية العلمية الوطنية ، وظل فيها تسع سنوات من (١٩٢٩ — ١٩٣٨) وفي هذه الكلية

---

(١) انظر مجلة المجمع العلمي بدمشق سنة ١٩٥٦ (ص ٣٥٣ — ٣٧٠) ، (ص ٥٢٩ — ٥٤٣) .

تخرج على يديه دباء وعلماء سلكوا في دروب المعرفة ، ورفعوا لبلادهم في مختلف الميادين ذكراً لاينسى .

وفي سنة ١٩٣٣ حنّ من جديد إلى الصحافة الأدبية ، فأصدر مع الدكاترة جميل صليبا ، وكاظم الداغستاني ، وكامل عياد مجلة « الثقافة » جاء في مقدمتها كلام يبين عن بعض أهدافها : « للأدب أبلغ أثر في تكوين هذه الثقافة ، فهو روح النهضات ، ومظهر حياة الأمة ، ولقد طغت عليه جلبة السياسة في هذه الأيام حتى كادت تخفت صوته في ضوضائها ، فأصبح من الواجب إقالته من عثرته والأخذ بيده ، وتقديس حرمه ، وانتهاج طريق واضح له في الدراسة والوضع » . وهذه السطور تغني عن شرح كثير في وصف الحال ورسم البواعث التي أهابت بالخليل ورصفائه إلى إنشاء هذه الصحيفة .

وكانت « مجلة الثقافة » الدمشقية صورة للصحف الراقية في بحوثها ومقالاتها وصورها الفنية ، تختار الشعر الجميل والقصص البديع والترجمات الحسنة . وكان للرجل فيها شعر ونثر ، كما كان في مجلة الرابطة من قبل . ولكنه هنا أبلغ وأحسن ، فقد سار بخطى نحو الجمال والاتقان ، وأصبح يفهم الشعر أحسن ما تفهمه الآداب الراقية ، وكتب مقالاً نشره في هذه المجلة نتخذه دليلاً على أسلوبه في الكتابة والنثر ، وشاهداً على مانقول من فهمه لرسالته في الأدب قال(١) :

« الشاعر : مخلوق خالق ، وروح خالد ، يصور من خفقات قلبه وخلجات ضميره وإبداع فكره أشباحاً ينفخ فيها من روحه فاذا هي من الخالدين . ملك أو جني ، هبطت روحه من عالم الغيب ، فتمثلت بشراً سوياً ، فهو مع بني الانسان ، ولكنه غريب عنهم ، فما يزال يصيخ الى هينمة الملائكة في السماء أو عزيف الجن في الصحراء ، ويستشف من وراء الأفق عالماً نورانياً ، ويتبيّن في الجو مسارح أنسه الأولى ، ومعاهد هواه القديم :

لابنة الجني في الانس طلل . . . .

فهو يقظان حالم ، أنكر الناس أمره وحاروا في شأنه ، وقالوا : شاعر أو مجنون .

---

(١) انظر مجلة الثقافة بدمشق ، تموز ١٩٣٢ (ص ٣١٧ - ٣١٨) .

« يأنس بالوحدة لأنه من نفسه في عالم ، ويؤثر السكون ليسمع جلجلة الوحي وأصداء الأرواح، ويسكن إلى الظلام ليشاهد الرؤى والأشباح ، ويغمض عينيه ليرى مافي السموات وما في الأرض وما بينها وما تحت الثرى » .

وهذا أسلوب جميل ، يجري بغير تكلف ، ويقتبس من القرآن الكريم ، ويسمو في فهم الشاعر ، لأن كاتبه يصف نفسه في حال الوحدة والسكون حتى يصطاد خفقات قلبه وما يحك في صدره وما يشع في بصره وما يفيض من عينيه . والذين أطالوا الاستمتاع بحديث الخليل وسكروا معه بكؤوس الصداقة هم الذين يعرفون كيف كانت تحوم أشباح الشعر حول عينيه وشفتيه وهم الذين يعرفون نشوة الشاعر حين يحس أضلاعه تهمس همساً ألذمن نسمات الصباح على أوراق الشجر مع أوائل النور، يجوس خلالها الشعر وتطرق القوافي، فينشرح صدره وتضحك عيناه .

وهذا الشعر وهذه القوافي ظلت تنطلق في آفاق العرب فتسكر وتطرب ، وترفع من شأن الشاعر ، وتذيع صيته بين الفحول ، يتلمس المثقفون فيها ذوب عاطفته وغناء قلبه وأماني قومه ، حتى تجمع منها على مر السنين ديوان كبير من الشعر ، هو هذا الديوان ، يعرض له الصديق العالم الدكتور جميل صليبا بريشته البارعة وعمقه الواعي ، فيكفينا مؤونة الدرس لشعره في هذه المرحلة من حياته وغيرها من المراحل .

وخلال هذه السنوات السعيدة الخصبة التي كان ينظم فيها الشعر ويدرّس فيها الأدب العربي راح الرجل يؤلف الدراسات الأدبية ويترجم لفحول الأدباء القدماء ، فأصدر عدداً من الكتب جعلها بعنوان : « أئمة الأدب » ، ونشر منها خمسة : « الجاحظ ، وابن المقفع ، وابن العميد ، والصاحب ، والفرزدق »[1] وهي دراسات مبسطة تجمع حياة الشاعر إلى مختار شعره ، وتعرضه عرضاً واضحاً موفقاً تعين طلاب البكالوريا وتفتح باباً للكتب المدرسية في الأدب العربي ببلادنا .

---

(١) الجاحظ ٩٦ صفحة - ابن المقفع ٩٦ صفحة - ابن العميد ١٤٤ صفحة - الصاحب ٢٥٦ - الفرزدق ١١٢ صفحة ، وكلها من القطع المتوسط .

ووقعت الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ ، وقد جاوز الخليل الأربعين من العمر ، وعرفه العالم العربي ، وأكبره قومه ، واحتل بين إخوانه في المجمع مكانة سامية ، فانتخبوه أميناً للسر سنة ١٩٤١ ، وراح يعمل سحابة أيامه مع الرئيس الأسبق المرحوم محمد كرد علي في انسجام وصفاء .

وكانت المجالس الصباحية في المجمع أشبه بمجالس القدماء تطوف فيها كؤوس النوادر الأدبية ، والصفحات العلمية ، فكان الصبوح في « دارة الخالدين » أشهى ما يشرب الناشئة وألذ ما يعالج الشيوخ ليومهم . وكأن الحرب مادارت منها رحى ، وكأن ظلام الدنيا ما اختلف إلى هذه العقول النيرة ، وعاش الرضا بين جدران « المدرسة العادلية »(١) شهوراً جميلة أعاد إليها جهاد العلم ، وانتصار الثقافة ، وسمو الانتاج .

وفي سنة ١٩٤٢ ، شاءت الحكومة أن تختطف العلاّمة الأديب من جدران المجمع لتجعله وزيراً للمعارف في ظروف قلقة ، فترك مابين يديه من دواوين إلى حين . ولكنه عاد بعد ذلك إلى أمانة السر لتقر به عيون الأعضاء ، ويفرح به الرئيس الجليل .

ومنذ سنة ١٩٤٦ ، أصبح العلامة الشاعر يحيا حياة جديدة أحبها منذ صباه ، وهي العكوف على المصادر القديمة ، واحياء الشعر الشامي يترنم به ويتغنى ، ويبحث وينقب ، حتى عرف كل حيّ من أحياء دمشق في قديمه وحديثه ، وأتقن كل لفظة دمشقية جاءت على لسان الشعراء قبله ، فغدا مرجعاً وثقة في هذا ، كما كان رئيسه ثقة في تاريخ الشام وحضارة الإسلام . والذين يتذوقون الأدب القديم ويعشقون الرحلة في مطاويه ، ويصبرون على التجوال في هوامش الكتب يجدون في تعليقات علامتنا سطوراً لا تضاهيها صفحات كثيرة ، ففيها من اللذة والجمال ما ليس في كتابات كثير من العصريين المجددين المتأدبين ، فهي حدائق من الأدب لا يسمو إليها خيالهم ، ولا تحملهم إليها قوائمهم .

وهذه التعليقات تجدها في الدواوين التي حققها الرجل واحداً إثر واحد على كمال متصاعد ، ما يزال يحسّن فيه حتى يبلغ الذروة . فقد حقق ديوان ابن عنين الدمشقي سنة ١٩٤٦ ،

---

(١) مقر المجمع العلمي العربي اليوم .

وديوان عليّ بن الجهم سنة ١٩٤٩ ، وديوان ابن حيوس سنة ١٩٥١ ، ثم ديوان ابن الخياط سنة ١٩٥٨ . وطبعها كلها المجمع العلمي بدمشق ، وصدّرها علامتنا بمقدمات ودراسات تقارب كلّ مقدمة منها خمسين صفحة ، ولو جمع بعضها إلى بعض . ولو جردت من صدور الدواوين لـكانت تاريخاً للأدب في الشام . يـكمل الدراسة التي أنشأها عن القرن الثالث للهجرة في صدر شبابه . فقد كان الشاعر منسجماً مع ماضيه يسير على خط مستقيم في عمله ، يعرف كيف يتم ، لا يصرفه نقد بعض المتنطعين لأعماله وأعمال المجمع ، ولا يغضبه قولهم فيه ، فهم يرون أن التحقيق والنشر من العبث والترف ، ويظنون أن الأدب كل الأدب قصة تنشر وقصيدة تخطر ، ومقالة تروج . وخطبة تلقى فحسب .

وقد كان الرجل يلقى عند المستشرقين اكباراً واعجاباً وثناءً لو جمع في ذكراه لأغنى القائلين في مدحه ، كما كان يلقى عند رصفائه من أعضاء المجامع العربية والدولية إكباراً وثناءً ، فتهافتت عليه المجامع العلمية والمدارس العالية تهدي إليه عضويتها ، وتلتمس إليه قبول الانتساب إليها . فانتخبه مجمع اللغة بمصر عضواً سنة ١٩٤٨ ، والمجمع العلمي العراقي عضواً كذلك سنة ١٩٤٩، ومدرسة الدراسات الشرقية بلندن عضواً سنة ١٩٥١ ، ودائرة المعارف الإسلامية للمستشرقين عضواً في تحريرها سنة ١٩٥١ ، ومجمع البحر المتوسط في بالرمو عضواً سنة ١٩٥٢ ، والمجمع العلمي السوفياتي عضواً سنة ١٩٥٨ .

وفي سنة ١٩٥١ ، عادت إليه الحكومة السورية لتدعوه إلى تسنّم منصب وزير مفوض لها في بغداد ، فسافر إليها وكان فيها موضع الحب والتقدير ، وغدت دارتنا هناك ملتقى العرب الأعلام .

وفي سنة ١٩٥٣ اختير وزيراً للخارجية .

وفي السنة نفسها ، انتخب رئيساً للمجمع العلمي العربي بدمشق ، فبلغ أعلى ما يطمح إليه عالم وأديب ، وقضى أماني قلبه ووثبات روحه واشراقة نفسه ، وأصبح في الذروة تعقد عليه الآمال وترنو الأبصار .

فلما انصرف عن السياسة والمناصب ، عاد الى المجمع العلمي ليسير بمنشوراته العلمية سيرة مجامع الغرب ، فاطرد العمل ومضت المجلة في ثوبها الجديد ، تثب في قوة وجلاء حتى قطعت

إلى اليوم من عمرها قرابة أربعين سنة ، وقد كان فقيدنا يقطعها أجمل ساعاته ويخصها بأخصب عنايته ، يكاد يقرأ مقالاتها كلها قبل النشر ويراقب ترتيبها ، ويحث على المضي في طبعها وتصحيحها ، واخراجها في نظام موقوت ، فكأنها قطعة من حياته ، كما كانت قطعة من حياة سلفه قبله .

أما مطبوعات المجمع فكان يعمل لها في جدّ متواصل ينظر فيها ويدققها كأنها بقلمه ، وكم راجع أصحابها وزودهم بما يعرف من أمور ، واشترك معهم في التعليق والتصويب . وكان بهذا الحرص المتواضع والجهد الدائم يدفع الشباب الى العمل ، ويحبب رسالة المجمع ، ويستزيد من الأصدقاء ، ويجمع حوله القلوب .

ولم يكن يدفع إلى الإنتاج فحسب ، وإنما كان يضرب الأمثال بنفسه ، فيحبر المقالات في دراسة الأدب ونقده وتحقيق نصوصه كما كان يفعل منذ أول نشأته في « الرابطة الأدبية » فهو في الستين من عمره كما كان في الخامسة والعشرين ، يعشق الأدب ، ويميل إلى التحقيق ، فيقبل على شعره يسجل همسات خاطره ، ويقبل على شعر أهل الشام فيعنى به ، وكان آخر انتاجه « ديوان ابن الخياط » ــ الذي ذكرناه ــ أتمه قبل عام من وفاته على أحسن مايصنع المحققون في العالم العربي ، فحشد له ثماني نسخ خطية ، جمعها من أطراف الدنيا ، وسار في التعليق عليها وموازنتها سيراً لا انقطاع فيه ، فاذا خلا من زواره انقلب إلى عمله يرسم بخطه الجميل أبيات الشعر ، كما رسم غيره من الدواوين لا يعتمد على ناسخ او ناقل ، فكأنه في الثلاثين من عمره جداً وجهاداً ، لا يفتر ولا يني ، حتى ملك الإتقان في هذا الديوان ، وكان لنا شرف الحديث عنه في مجلة المجمع (١) ، فألمعنا إلى أياديه على الجيل في هذا الكتاب وفي غيره ، وبسطنا خطته في تاريخ الأدب العربي لإقليمنا ــ كما قلنا ــ ورجونا أن يتم السلسلة إلى القرن السابع الهجري حيث وقف الشعر العربي عن فيض إبداعه . ولو قد مدالله في عمر الفقيد لعمد إلى طبع ابن منير الطرابلسي وابن القيسراني ، وقد حدثني عنهما ، وأطال في الشوق الى اخراجها ، فوفر لها النسخ والمصادر ولكن المنية بالمرصاد للنفوس الكبيرة المجاهدة التي تستقل ساعات الحياة دون تحقيق مشاريعها الضخمة .

---

(١) انظر المجلد ٣٤ ، سنة ١٩٥٩ (ص ١٢٦ – ١٣٣) .

ولعلّ هذا الإجهاد من غير راحة بعد بلوغه السنين قد أضر بجسمه ، فأورده موارد المرض والعلة ، وأقعده عن السعي الى المجمع ، فافتقده اخوانه وصحبه وهم كثر ، ورأوا مكانه خالياً لا يسد ، فلا مرجع يرجعون اليه ، ولا مشير يعلقون على رأيه الأمل . فقد كان مستودع الأسرار ، شديد الحرص عليها وفياً لصحبه ، جميل التواضع ، كأن الشعر الرفيع سكب عليه برداً من أجمل أبراده ، فكساه بأجمل الحلي وزينه بأنقى الصفات . فقد كان رحمه الله صورة للرقة في حديثه ومجلسه ، ما تنقطع بشاشته عن خدينه ، حتى لكأنه ورد الربيع ينشر العطر ، ويجْمل الذكر ويكسو الحديث أطيب النكهة . فما عرفنا أن لسانه الحيي المتردد انطلق مرة إلاّ في خير الناس ونفع الأدب ، وخدمة المجمع ومجد العرب . وكانت عيناه الواسعتان تشعان أبداً بنور النبل والحياء الجم والتواضع الجميل تفرحان للجمال ، وتضحكان للنكتة البريئة ، وتسبران غور المحدث ، وكان في حركاته مثالاً للرجل الرصين الرزين الوقور ، على مر السنين : فتى يافعاً ، وأديباً ناشئاً ، ومدرساً نافعاً ، وعضواً عاملاً ، ووزيراً متواضعاً ، ورئيساً مخلصاً ، تقلّب في حياته على الغنى والجاه وتنقل في المراتب والمناصب، فماأبطرته ولاأسكرته ، لأنه كان فوق ما أعطته ، ولأنها كانت دون ما يستحق .

ولهذا غدت سيرته في صحبه ورصفائه من أعضاء المجمع وأصدقائه الأدباء نفحة عطر وأوراق زهر وصفحات خلود وسطور أمجاد ، ما يستطيع قلم مها أوتي من قوة أن يرسم مبلغ صفائها ونقائها ، وما يبلغ بيان إلى وفائها حقها . فهي جوانب كثيرة لا يلم بها مقال مها طال ، لأنها أخذت من كل روض وجمعت من كل أفق فغدت باقة في الاعمار، كلما كشفنا عن زهرة منها فاح عبق ، وكلما قلبنا ورقة منها ملأت وجه الأفق ، فهي سيرة تفيض على السنين التي عاشها ، ولا تعد الأعمار الكريمة بالأعوام ، ففي كل مرحلة من مراحل عيشه التي ألممنا اليها أثر كبير وخير كريم .

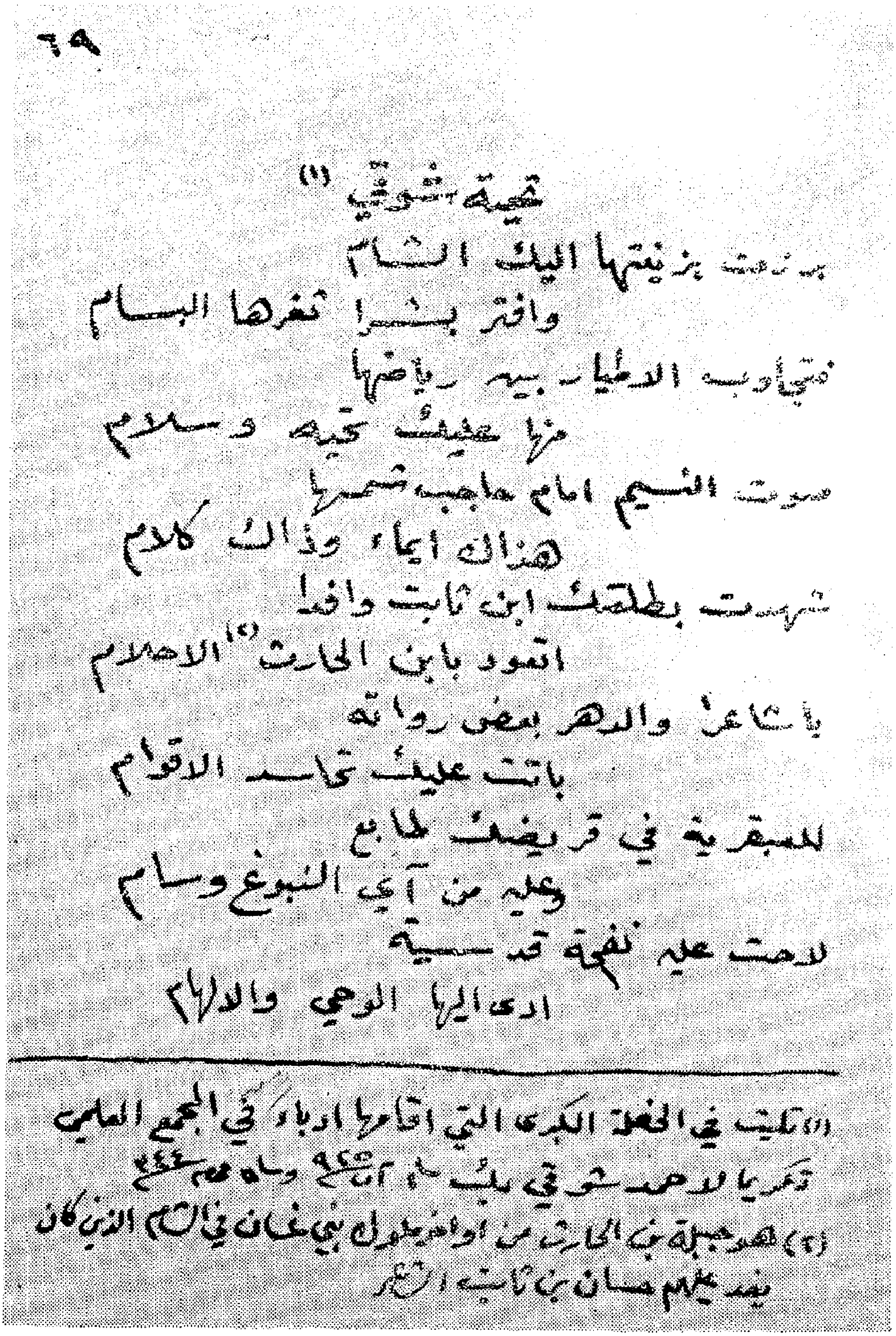
رحم الله الشاعر رحمة واسعة

الدكتور سامي الدهان



١٨٩٨ — ١٩٥٩

آخر صورة للشاعر خليل مردم بك سنة ١٩٥٧

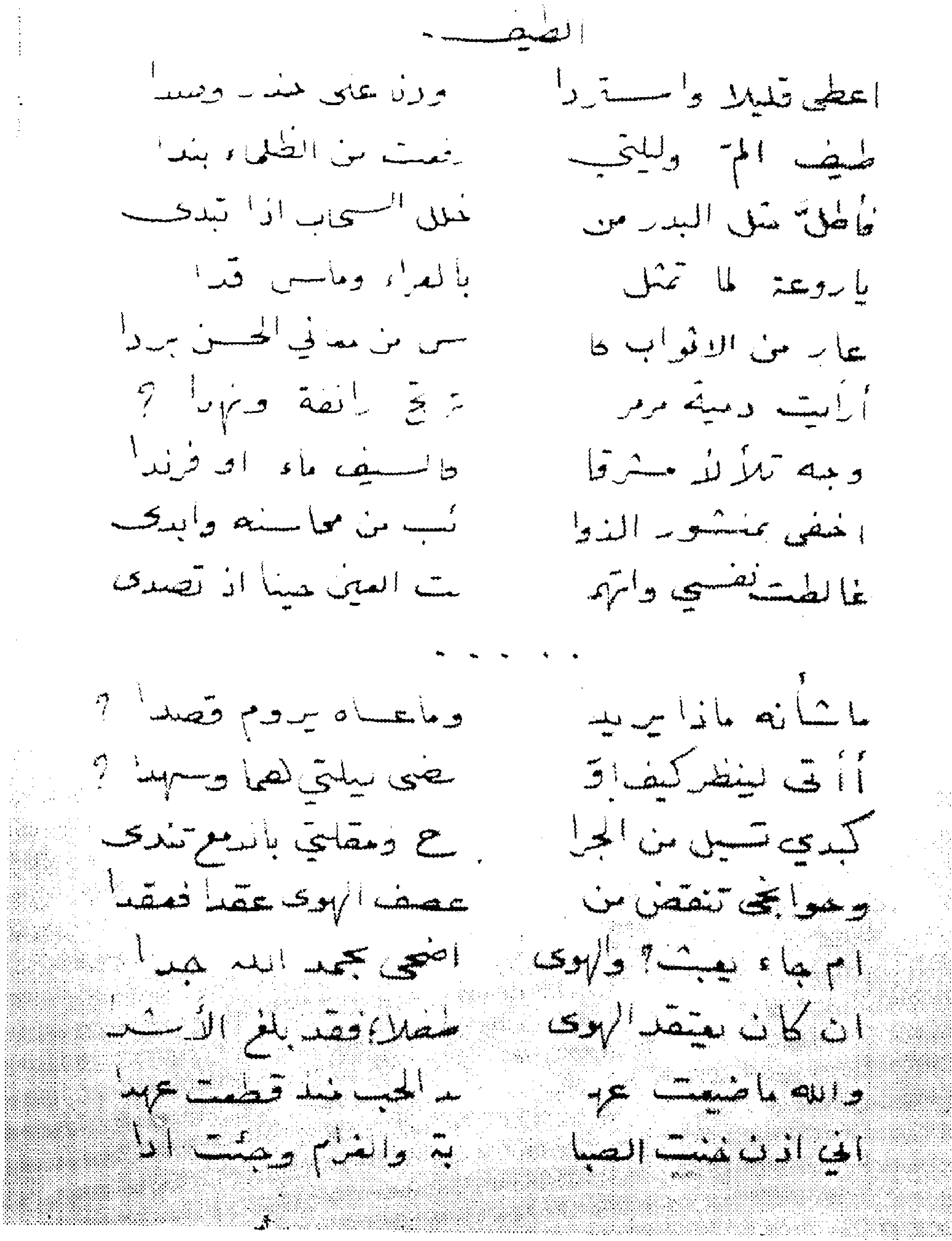

٦٩

تحية شوقي (١)

بعثت بزينتها اليك الشام
واقترّ بشرا ثغرها البسام
فتجاوبت الاطيار بين رياضها
مرحا عليك تحية وسلام
صوت النسيم امام حاجب شمسها
هذاك ايماء وذاك كلام
شهدت بطلعتك ابن ثابت وافدا
اتعود بابن الحارث (٢) الاحلام
يا شاعرا والدهر بعض رواته
باتت عليك تحاسد الاقوام
للعبقرية في قريضك طابع
وعليه من آي النبوغ وسام
لاحت عليه نفحة قدسية
ادت اليها الوحي والالهام

(١) القيت في الحفلة الكبرى التي اقامها ادباء في المجمع العلمي
تكريما لاحمد شوقي بك سنة ١٣٤٤ وسنة ١٩٢٥
(٢) هو جبلة بن الحارث من اواخر ملوك بني غسان في الشام الذين كان
يمدحهم حسان بن ثابت الشاعر

(رقم ١) نموذج من خط الشاعر نقلاً عن ديوانه الشعري (المجموعة الثانية)
المحفوظة في المجمع العلمي العربي


الطيف

اعطني قليلا واستردا　　وزنا على حند وسدا
طيف الم وليلتي　　نعت من الظلماء بندا
ماطلة مثل البدر من　　خلل السحاب اذا تبدى
يا روعة لما تمثل　　بالهواء وماس قدا
عار من الاثواب كا　　س من معاني الحسن بردا
أرأيت دمية مرمر　　تجح رانقة ونهدا ؟
وجه تلألأ مشرقا　　كالسيف ماء او فرندا
اخفى بمنشور الذوا　　ئب من محاسنه وابدى
غالطت نفسي واتهم　　ت العين حينا اذ تصدى

. . . . .

ماشأنه ماذا يريد　　وماعساه يروم قصدا ؟
أأتى لينظر كيف اقـ　　ـضي ليلتي لهما وسهدا ؟
كبدي تسيل من الجرا　　ح ومقلتي بالدمع تندى
وحوائجي تنقض من　　عصف الهوى عقدا فعقدا
ام جاء يعبث؟ والهوى　　اضحى بحمد الله جدا
ان كان يعتقد الهوى　　طفلا فقد بلغ الأشـ
ـد الحب مذ قطعت عهـ　　ـد والله ماضيعت عهـ
الي اذن مذ عدت الصبا　　بة والغرام وجئت ادا

(رقم ٢) نموذج من خط الشاعر قصيدة الطيف نقلاً عن ديوانه الشعري
(المجموعة الثانية) المحفوظة في المجمع العلمي العربي

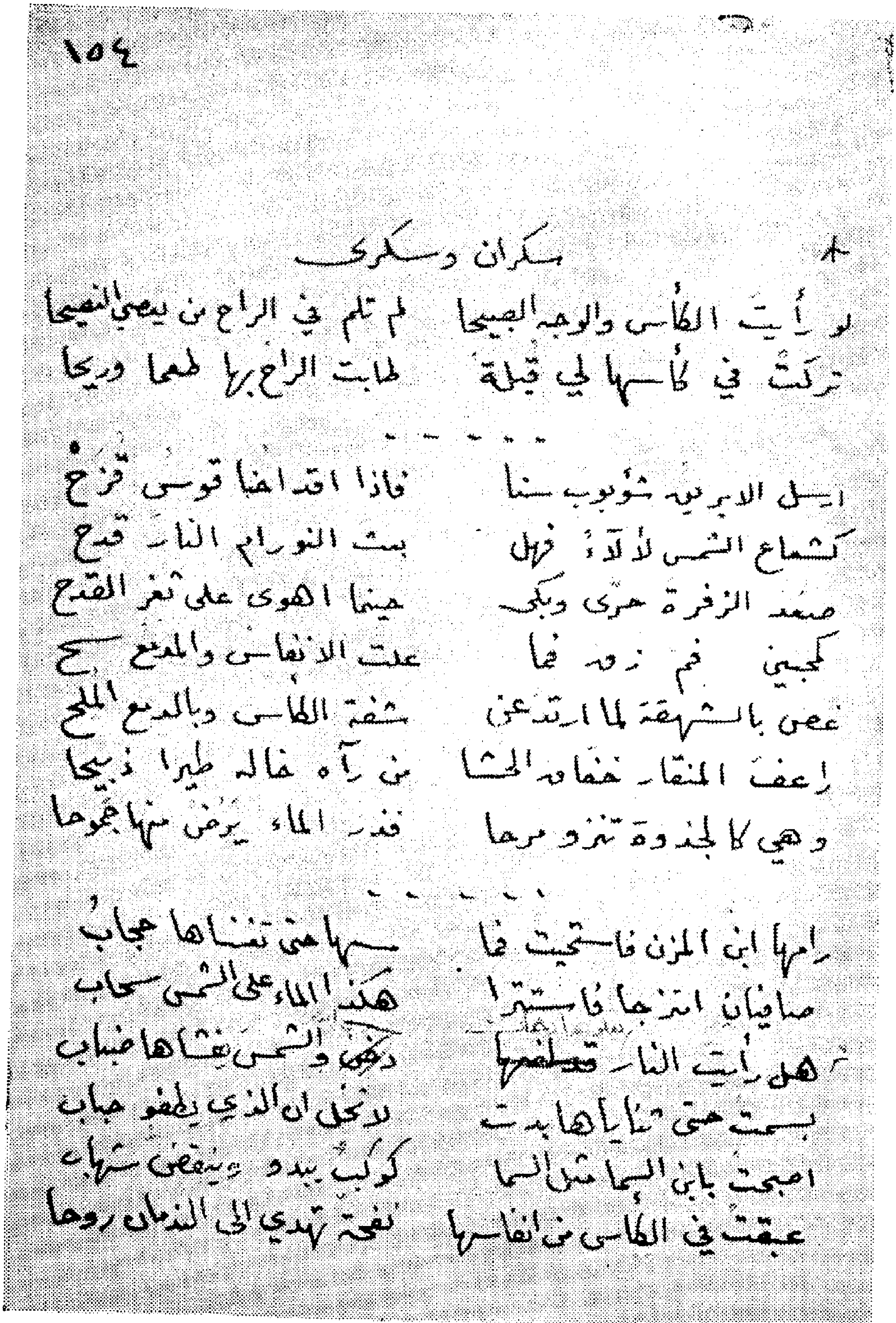
. . . .

حبيّ وطأطأ رأسه   وخطا اليّ ومدّ زندا
يرنو وارنو فالعيو   ن تجاوبت اخذا وردا
انا ما بعدت دنا اليّ   فان دنوت عدا وشدا
يطو اليّ بجيده   ويديرلي خدا فخدا
فاذا لمحت به ترا   جع ضاحكا غنّي وندا
كتمنع الحسناء اذ   عمدت الى الادلال عمدا
ولو اعتلقت الجذ   ع جنيت تفاحا وورد ا
مازال بي حتى لقد   اغرى الصبابة بل تحدى
داورته بالرفق لد   آنو لو ان الرفق اجدى
ومددت اشراك التألف   والرياض اليه عدا
وختلته بحبائلي   وارغته عكسا وطردا
وسعيت لاستغوائه   فاذا به بالغي اهدى
ماكنت اعلم انه   اقوى يدا واعز جندا

. . . .

سحر العيون فاخطأت   قيدا لموقفه وحدا
كالشمس تحسبها دنت   للقرب وهي اشد بعدا
اني عييت بامره   ولقيت مؤتلفا وضدا
قربا وبعدا وهوم   يرح ووجدانا وفقدا
فكان من دون البلو   غ اليه هاوية وسدا

تابع نموذج رقم ٢



(رقم ٣) نموذج من خط الشاعر قصيدة سكران وسكرى نقلاً عن ديوانه
(المجموعة الثانية) المحفوظة في المجمع العلمي العربي

وهي قبل المزج تحكي رقة — ادمع (العذراء) اذ تبكي (المسيحا)

. . . . .

قد رفعناها نحيي بعضنا — وقرعنا بعد ذا كأسا بكأس

وتعاهدنا على (السر) وما — اضيع (السر) على انفاس حاسي

وعلى اسم (الحب) كانت نهلة — تغمض العين وتغري بالعطاس

ثم ثنينا فساغت سهلة — اضمأها التقبيل من بعد شماس

انبتت في كل خد وردة — ورنت في كل عين بالنعاس

ومن الانس حلت عقدا — هكذا تجعل من عي فصيحا

ارهفت حسا وهاجت شجنا — وبها جو المنى امسى فسيحا

. . . . .

ايقظت عاطفة وثابة — ورنت جفنا وجسما بالفتور

هانت الدنيا على شاربها — لا تساوي عنده شروى نقير

هي لولا الكاس لا معنى لها — دارت الدنيا على كف المدير

كلما قبلها هام بها — فحباها بصغير وكبير

اي شيء شبت الراح به — من امان ونعيم وسرور

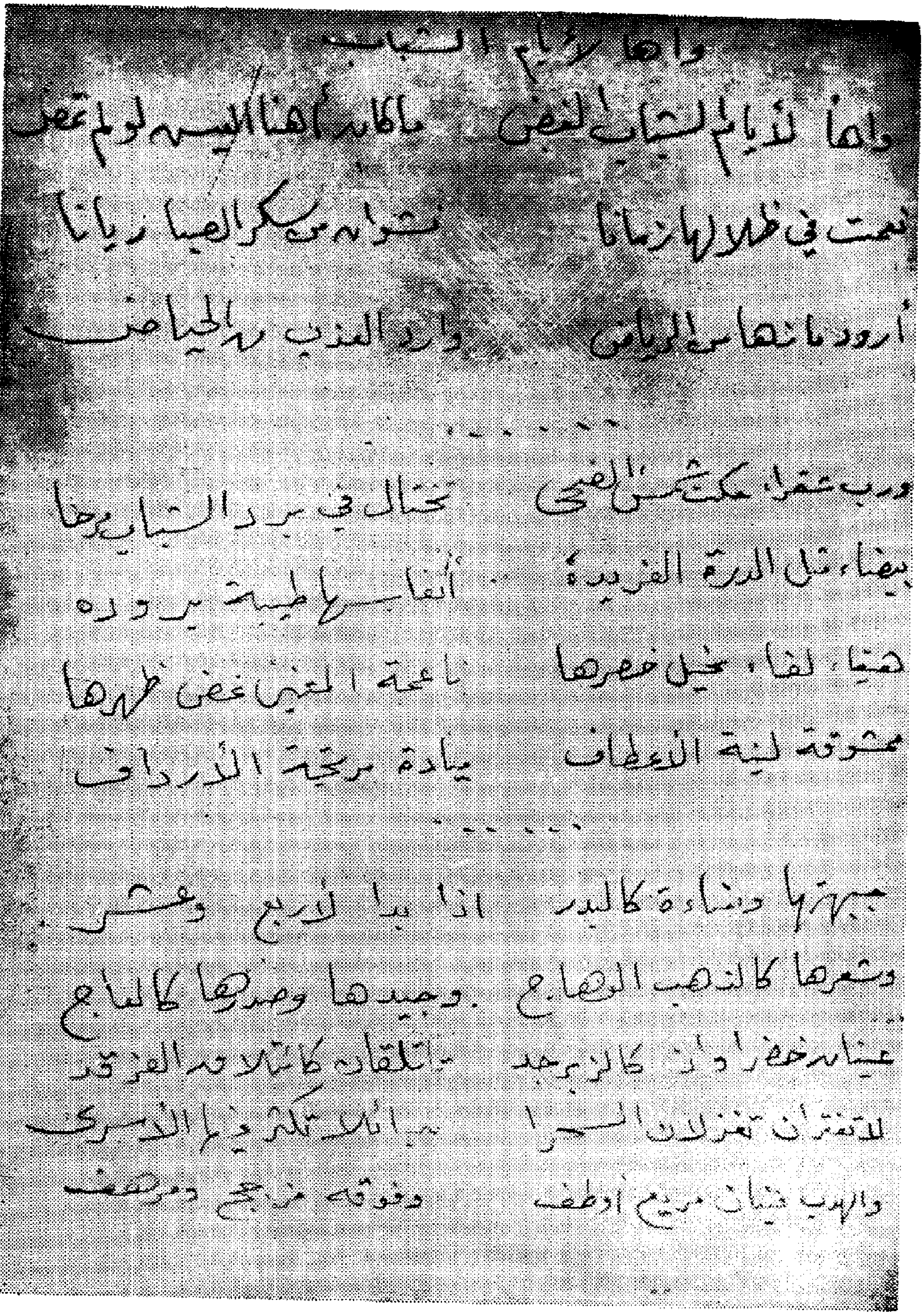
فمن اجفانه مستيقظا — اذ رأى احلامه تجلى وتوحي

السمادير رؤى سحرية — فاتخذ كاسك (شتقا) و (سطيحا)

. . . . .

يا ضجيع الكاس افديك انا — في ضياع الكاس قرني وحرمي

تابع نموذج رقم ٣



وا لهفا لأيام الشباب

والهفا لأيام الشباب الغض ... ما كان أهنا العيش لو لم تمض

نعمت في ظلالها زمانا ... نشوان من سكر الصبا ريانا

أرود ما [illegible] الرياض ... وأرد العذب من الحياض

. . . . . .

ورب شقراء حكت شمس الضحى ... تختال في برد الشباب مرحا

بيضاء مثل الدرة الفريدة ... أنفاسها طيبة [illegible]

هيفاء لفاء نحيل خصرها ... ناعسة العين غضيض طرفها

ممشوقة لينة الأعطاف ... ميادة مرتجة الأرداف

. . . . . .

جبينها وضاءة كالبدر ... إذا بدا لأربع وعشر

وشعرها كالذهب الوهاج ... وجيدها وصدرها كالعاج

عيناها خضراوان كالزبرجد ... [illegible] كاللآلئ الفريد

لا تفتران تغزلان السحرا ... [illegible]

والهدب فتان مريع أوطف ... وفوقه مزجج مرهف

(رقم٤) نموذج من خط الشاعر وهذه القصيدة هي آخر ما نظم الشاعر رحمه الله ولم تدرج القصيدة في ديوانه المخطوط ؛ وإن مسودة القصيدة محفوظة في المجمع العلمي العربي